لعبة التخادع في الحياة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

كثيراً ما يخطئ المخادع المحتال إذا حسب أن الناس قد انخدعوا بمكره ، وكلما كان نصيب المخادع من الذكاء أقل كان اعتقاده فى قدرته على خدع الناس أعظم فلا يتخذ فى وسائل خداعه من الأساليب ما يحتاط به لفطنة الناس إلى خداعه

أما المخادع الذكى فإنه يفطن إلى أن الناس كثيراً ما يتظاهرون بالانخداع ويدعونه إما لكى يعرفوا غاية المخادع ومأربه ، وإما لأن لهم لذة فى أن يخدعوا المخادع وأن يضحكوا منه فى سرهم ، وإما لأن لهم مأرباً لا ينالونه منه إلا بإظهار الانخداع له . ومن أجل ذلك ترى المخادع الذكى يحاول أن يستفيد من ادعائهم الانخداع قدر ما كان يستفيد لو أنهم انخدعوا حقيقة . والقدرة على الاستفادة من ادعاء الناس الانخداع هى سر النجاح فى الحياة ، وليست بمستطاعة لكل إنسان . والحياة فى كل عمل أو مظهر أو رأى أو مطلب ومكسب وفى كل حاجة من حاجاتها يوجد بجانب ما بها من الصدق شىء من الخداع والانخداع وادعاء الانخداع ، وهذه هى أقانيم الحياة الثلاثة أو ثالوثها المقدس

وقد تدرك الحيرة الشاب الذى يزاول الخداع فى الحياة فى أول عهده بالفطنة لما يتطلبه النجاح من الخداع ، فإنه قد يبدأ فى خداع إنسان فإذا بذلك الإنسان يحاول أن يخدعه بأن يدعى أنه انخدع به حقيقة . وهذا يكون كالنشال الذى يقابل إنساناً يتوسم فيه السذاجة وهو لا يدرى أنه نشال مثله فيسلم عليه بيد ويمد اليد الأخرى بخفة إلى ثياب ذلك الإنسان يبحث بها عن حافظة نقوده ، فإذا به يشعر أن يد ذلك الإنسان الأخرى تبحث عن حافظة نقوده هو ، فتدركه الحيرة ويكاد لا يعرف أيهما النشال

وهذا يذكرنى بما جاء فى كتاب الكامل للمبرد عن أحد البيعة بالخلافة ليزيد بن معاوية ، فقد أطنب الناس فى مدحه وأسرفوا إسرافاً جعل يزيد ، وقد كان ذكياً ، يعرف أنهم غير منخدعين بصفات المدح التى وصفوه بها وهى ليست من صفاته ، وأدرك أن لهم مأرباً فى ادعاء الانخداع بخلقه وصفات نفسه ، فالتفت إلى أبيه معاوية وقال : يا أبى هل نخدع الناس أم هم الذين يخدعوننا ؟ فقال له معاوية : يا بُنىَّ ، إنك إذا أردت أن تخدع إنساناً فتَخادَع لك حتى تنال منه ما تريد فقد خدعته . أى أن ادعاء الناس الانخداع وإن كان باطلاً فهو وانخداعهم سيان ما دام المرء ينال منهم ما يريد . وهذه حكمة من معاوية تدل على أنه كان بصيراً بالنفس الإنسانية ومسالكها فى الحياة .

وهى حقيقة تُحسُّ فى كل مجلس من مجالس الناس ، وفى كل بيئة . فهى ليست بالأمر الصعب إدراكه . بل لولا ادعاء كل معاشر أنه انخدع بمعاشره فى أمور الحياة ما طابت الحياة . ومن أجل ذلك لا يمقت الناس أحداً قدر مقتهم الرجل الذى يريد أن يرفع غطاء الرياء عن الحياة ، ويختلقون له أسباباً يسوِّغون بها مقتهم . وكأن لسان حالهم يقول له : دعنا نخادعك وخادعنا أنت أيضاً كما نخادعك ، وادَّع انك انخدعت بنا ، ودعنا ندَّعى أننا انخدعنا بك . فإن من الإنصاف ، أو من الذوق ، أو من الرحمة أن يدَّعى كل عشير أنه انخدع بعشيره ما دامت النفوس لا تستطيع الحياة إلا على هذه الأخلاق ، ولا تستطيع أن تغيرها . وكأنما يقول لسان حالهم أيضاً : إن تبادل ادِّعاء الانخداع مَثَلهُ مَثَلُ من يعطى هدية ، ويأخذ هدية فى قدر قيمتها . ومطالب الحياة لا تنال إلا على هذا النمط . أما الذى يريد من الناس أن ينخدعوا له ويغضب إذا اتضح له أنهم لم ينخدعوا ، بل يدعون الانخداع ، ويعد ادعاءهم الانخداع له عملة زائفة لا يقبلها ، ويطلب منهم العملة غير الزائفة ، أى انخداعهم الحقيقى ؛ ثم هو لا يعطيهم لا انخداعاً ولا ادعاء للانخداع ، فمَثَلهُ مَثَلُ من تقدم له هدية فيغضب إذا لم يُعط أعظم منها ، وهو لا يُعطى مثلها .

وينبغى للانسان إذا ادَّعى الانخداع لعشير أو صديق أو رئيس أو مرءوس أو عميل أن يلازم الحذر من أن ينقلب ادعاؤه الانخداع انخداعاً حقيقياً ؛ فيكون كمن يرى لصّاً فى منزله فيدَّعى النوم حتى

يجد من اللص غفلة ليتمكن منه ، فإذا بادعائه النوم قد صار نوماً ؛ فيغط فى النوم حتى يأخذ اللص كل ما يريد من البيت ويتركه ، وصاحبه قد ادعى النوم حتى نام .

وهذا أيضاً شبيه بمن يريد أن يحتال على إنسان فيقدم له قطعة من الذهب ويدعى أنه وجد كنزا كى يخدع ذلك الإنسان ، ويسلبه ماله، فيدّعى ذلك الإنسان السذاجة وأنه انخدع ، ويأخذ القطعة كى يسأل عن قيمتها ثم لا يعود .

وهو أيضاً شبيه بصاحب الورق القاعر على الورق المقلوب من ورق اللعب ، يدعى الخسارة ويعطى اللاعب جنيها كى يستدرجه ويسلبه ماله فيدعى اللاعب أنه ساذج ، ويظهر رغبته فى استئناف اللعب ، والقمار ، ويستأذن فى قضاء حاجة ضرورية من حاجات الجسم ثم يذهب بالجنيه ولا يعود .

وهذه الأعمال لها نظائر وأشباه بالقياس فى أعمال الناس الجليلة الكبيرة المشروعة المحترمة . فالحذر عند ادعاء الانخداع ضرورة . أما أن يفتخر المرء بأنه لا يستطيع أحد أن يخدعه فإذا كان يراد به التملق لمن يتظاهر مع ذلك بالانخداع لهم فهو دهاء ، ووسيلة كسب بالمكر . أما إذا أريد به مضايقة الناس وتحريك عوامل خوفهم وبغضهم فهو سذاجة أو بلاهة ، ولا شىء يدعو إلى الفشل فى الحياة كاعتقاد الناس فى إنسان أنه لا ينخدع ، ولا يدعى الانخداع ؛ وهذا الاعتقاد يؤدى إلى بغض الناس من يعتقدونه فيه حتى وإن كان اعتقادهم باطلاً لا أساس له ، وهذا التظاهر بالانخداع هو ما جعله أبو تمام من أسباب السيادة وسماه بالتغابى فى قوله :

ليس الغبىُّ بسيِّدٍ فى قومه
لكنَّ سيد قومه المتغابى

وتبعه البحترى فقال :

وقد يتغابى المرء فى عُظْمِ مَالِهِ
ومِنْ تحت بُرْدَيْهِ المُغيرَةُ أو عمرو

عبد الرحمن شكرى

صلوات فكر
فى محاريب الطبيعة
للأستاذ عبد المنعم خلاف

يا أرض الرستمية !

عليك السلام من عينى اللتين تدوران فيك دورات زائغة زئبقية مروعة وتلقطان الصور من حياتك ومواتك وآفاقك وذراتك . . .

ومن قلبى الذى قدستِ أسراره وقدس أسرارك وخلدتِه وخلدك . . .

ومن فكرى الذى صقلتِه وأرهفتِه وجعلتِه يتصل بأصول الحياة ويرتبط بوثيق الأسباب . . .

لقد توسعت نفسى من رحبك وتعددت بتعدد مرائيك ، ورقرق خواطرى نهرك الوديع اللعوب ، فى ابتسام الفجر وبكاء الغروب ، وأحسست سلامة النبات وهدوءه وصبره وصمته ونموه وإشراقه يدب فى جسدى . . .

لقد اختلطت فيك الرؤى بالأحلام ، والصحو بالذهول والمنام ، فتوسع عالمى ورأيت فى دنياى وفى نفسى مخابئ وعجائب ومدخرات ومكنونات . . .

لقد خلدت فى خيالى صور الأعواد الجافة والخضراء والربى والوهاد والزهر والمطر حتى لأوشك أن أعد كل أولئك واحداً واحداً من ترديد النظر وانطباع الصور . . .

وهل أنسى كئوس النور والظلام التى أدرتها على عينى مخضبات بأصباغ الشفقين ، مشعشعات بالندى والطل ، مطيبات بنفح الزهر وأنفاس السحر ؟

لقد شربت عيناى فيك من النور والظلام فسكرت سكراً أبدياً أفرغ فى كل خلية من خلاياى نشوة وفتوناً

لقد دخلتك كارهاً فراق بغداد . . . فكنت كالذين يقادون إلى الجنة بالسلاسل !

ثم انطلقت فى رحابك انطلاق رياحك وأطيارك ، أحمل قلبى